من يد ذات سوار إلى يد ذات سوار ...

لى — ياسيدتى — يدٌ ذات سوار كيدك ، وأناملُ ناعمة نعومةَ أناملك ، ونفسٌ مرهفٌ حسُّها إرهاف حسك . فأما يدى فأصدقُ سعيها أن تصول فى عالم الكتابة وتجول ؛ وأما أناملى فأحبُّ ملمسها أوتارُ قيثارة خالدة توقّع عليها ألحان البيان الرفيع ؛ وأما نفسى فغايةُ مُتمناها أن تصور مايجيش فى أحنائها تصويراً واضح الفكرة قوى الحبكة رائع الأسلوب ، يبوّئها فى ميدان الأدب مكاناً عليّا ترنو اليه الأبصار فتهوى اليه القلوب ..

وانى — بلا ريب — لم أبعث إلى « الرسالة الغراء » بمقالى هذا لأفتح لكِ نفسى فتفتحى لى نفسك ، فان لنا فى أرجاء المجتمع الوسيع لغناءً عن التعارف على صفحات مجلة حملت — وما انفكت تحمل — مشعل الأدب العربى الصميم ، وسمحت وما برحت تسمح للاقلام الرقيقة الأنيقة ، أقلامنا معشر ذوات الأساور ، أن تقوى وتشتد لتكتب فى بعض أبوابها فصولا من معتصرات أدمغتنا ، بها ندافع عن كرامتنا ان خدشت ، وعن شعورنا ان جرح ، وبها نقيم دعائم نهضتنا حين تنقض فرقا من سواعق الرجعيين الجامدين ، أو هَلما من زلازل المجدّدين المتطرفين ! .

جميلٌ منك — ياسيدتى — أن تثيرك مقالات الأستاذ « الطنطاوى » الأخيرة فتبعثك على الطمع فى المثول بين يديه مثول التلميذ بين يدى معلمه .

وجميل من « الرسالة » أن ترضى ما صبت اليه نفسك ، فتنشر ماجادت به يراعتك ، ليشهد فيه « صاحب المناظرة الهادئة » صورة صادقة التعبير عن الأدب النسائى المتزن بفكره الثاقب ونظره البعيد .

وانه لجميل جدا من الأستاذ « الزيات » صاحب هذه المجلة الغراء أن ينقع غلتى فينشر كلمتى ، ويسمح لى بايضاح فكرتى ، على عجز قلمى وضعف مُنتى ...

غير أنى لا أطمع — ياسيدتى — فى شرف طمعت فيه : فلأنْ أبقى طيلة حياتى فى صومعة النسيان أكتب لنفسى فلا يحس بى قريب أو بعيد — أحبُّ إلىَّ من أن تكون لى « دالة خفيفة » أو ثقيلة ، « مشفوعة بالأدب والطواعية » أو غير مشفوعة ، على عَلم من أعلام الأدب العربى لا أستبعد أن يرى بعينيه النقادتين الحادتين من الضعف فيما أكتب اليه خاصة مالا يراه فيما أكتب إلى الآخرين ، فيحاسبنى فى حاضره حسابا عسيرا على مستقبلى : وإذا نفخة واحدة من نفخات قلمه العاصف — وهو يهتز تأثراً — تذهب بجميع مايستوقده أدبى الناشىء من نار ، وما يحاول أن يرمى به من شرر ، فلا ألقى بعد إلا يأسا فى قرارة النفس عميقاً ، وزهادة بين الضلوع موغلة ، وأستوحش شيئاً فشيئاً من الأدب والأدباء ، ومن الكتابة والكاتبين .

لا . لست متشائمة يا صديقتى . . ولا والله ما أحب أن تتشاءمى من حديثى هذا اليك ؛ فانى لأعلم أنك — بعد أن تقدمت إلى الأستاذ الطنطاوى بمقالك الجرىء الذى أحسنت سبكه وأحكمتِ ربطَه ، وعرفتِ بأى لطف وظرف وكياسة تعرضينه — ان تراعى إذا ماجلجلت مقالات الاستاذ من جديد ، فانها إذا خطفتْ ببرقها بصرَكِ ، أو أصمّت رعدها سمعك ، لن تزيد فى زلزالها عما تعودت من قوتها وتهدارها ، ولن يهولَكِ فيها إذاً آتيها بعد الذى مضى ، ولا مُقبلها بعد الذى خلا ...

ولكن ...

إن يكن فى وسع سيدتى أن تصبر على حملات « الطنطاوى » بعد أن تثيره ، فليس فى وسعى ولا أحب أن يكون فى وسعى أن أصبر على حملة من حملاته من غير أن تخضلَّ عيناى بدموع من الاخلاص سواكب ، لأنى آمنت بأنه لايحمل إلا إذا كان على حق ، وأيقنت بأن الحدة لاتخرج دقاقة من بين ثنايا مقالاته إلا إذا آلمه الشىء النكر ؛ وأنى لمثلى — وهى التى يوشك أن يجرفها التيار كما جرف الكثيرات من قبل — أن تصبر على جراح قلم سِلم للحق ، حرب على النكر ؛ يجاهد فى سبيل الله ولا يخاف لومة لائم ! .

إنى — على إعجابى بما جاء فى مقالك ياصديقتى — لمقتنعة بسداد الأستاذ فى موضوعه (مناظرة هادئة) وما سبقه من الموضوعات فى معناه : إذ مهما يكن الرجل قواما على المرأة ، ومهما يكن حاملا من أوزارها ، فلتقعنَّ على عاتقها تبعات كثيرة ، ومسئوليات

جسيمة ، ولاسيما إذا كانت مثقفة ، عالة بأوضاع الحياة المختلفة وإذاً لاغرابة إذا أرسل الأستاذ « الطنطاوى » شواظاً من نار كلماته النضي على سواد المتعلمات اللاتى أهمان رسالاتهن بعد عرفانها ، ونقضن مواثيقهن بعد توكيدها ، فاستحققن من « الطنطاوى » وغيره أن يصفهن بالجمادات الخرساء ولو حملن أعلى الشهادات من بكالوريا ودبلوم وليسانس وماجستير .

لا غرابة فى هذا كله .

ولا غرابة فى أن يناظر الأستاذ أولئك المتعلمات مناظرة (هادئة) رفقاً منه بالقوارير ، وحنانا من لدنه على لابسات الحرير . .

ولكن الغرابة حقاً فى أن تتورى لنا من دوننا جميعاً معشر صاحبات « نون النسوة » فتدافعى عن عدد قليل من المتعلمات تصفيته بالجم الغفير ، وتبرزين من سداد رأيه واستقلال فكره وبعد نظره الشىء الكثير ، حتى لكأنى بك تحسبين أن الطنطاوى جاهل أو متجاهل ذلك العدد القليل الذى غاليت فى تمداحه ، أو أنه كتب مقالاته من قبل أن يدرس نفسيته وأطواره .

عفواً يا أختاه ! .

لقد قلبت الآية فجعلت الكثير قليلا ، والقليل كثيراً .

ألا إن أكثر المتعلمات حظا من الحيوية والنشاط واستقامة المبدأ لأقلهن عدداً . وإن أقل المتعلمات خلاقا من الخير والفضيلة وحسن الاتجاه لأكثرهن سواداً .

ولئن عرفت جماً غفيراً من صديقاتك المتعلمات اللاتى يعجبن السامعين بحوارهن ونقاشهن فان أخوف ما أخافه أن يكون حاملك لنا — نحن بنات جنسك — قد بعثك على المغالاة فى نثر المديح ، فانى عرفت مثلك جماً غفيراً من السيدات والفتيات المتعلمات ، لكنى أبيت أن أتخذهن صديقات إلا ما رحم ربى ، إذ ألفيتهن إلا قليلا منهن — على كثرة ما فى رؤوسهن من المعلومات — يرددن ما يحفظن ترديد الببغاء .

وما أحسبك تنكرين الصلة الوثيقة بين العلم والدين ، وبين الثقافة والفضيلة ، وأنك حين تشايعين الأستاذ على مايقوله فى فتاة العصر من ناحية الدين — والدين كما تعلمين ينبوع الفضائل — فقد شايعتيه على كل ما يلوم عليه أكثر فتيات هذا العصر ، لأن علومهن وفنونهن وآدابهن لاتؤتى أكلها المطلوب ، ولا ثمراتها المنشودة .

إن الأستاذ الطنطاوى لايريد من وراء مقالاته أن يسىء إلى شعورنا معشر الجنس اللطيف ، ولا أن يجرح كرامة المتعلمات وأنصاف المتعلمات بله العاميات اللاتى لايفقهن مما يقول حديثاً ، ولكنه — كما فهمت من غضون كلماته — يقصد إلى تذكيرنا جميعاً بواجبات طال علينا الأمد فى الغفلة عنها ، فاختار لذلك أعمق الأساليب أثراً ، ليكون فى توالى صيحاته عبرة لمن يخشى .

ألست معى فى أن كثيراً منا بات لايعتبر إلا بالكلام الجارح ، والخطاب الصادع ؟ .

ألست معى فى أن أنوثة الكثيرات من المتعلمات فينا قد فقدت غير قليل من جمالها حين استبدلت خشونة مشاركة الرجل فى أعماله بنعومة تدبير المنزل وتربية الأطفال ؟ .

أو لست معى أخيراً فى أن ثقافة هؤلاء المتعلمات لم تحل دون تقليد الأجنبيات على عمى ، وأن الرقة فى خطابهن واللطف فى مناقشتهن والهدوء فى مناظرتهن لم تزدهن إلا عشقاً لكل جديد ولو كان فيه الموت ، وهرباً من كل قديم ولو كان فيه الحياة ؟

اغفرى لى يا صديقتى إذا قلت : لا سبيل إلى إصلاحنا معشر النساء إلا صرخات مدوية ، وغارات متوالية ، تهيب بنا أن نوثق عرى اسلامنا قبل أن تنفصم ، وأن نجدد شباب عروبتنا قبل أن يهرم ، وأن نبث روح الفضيلة فى جيلنا قبل أن يموت ...

فشكراً لك ياسيدى الطنطاوى على نفثات قلمك ... ولتمسك بيدك القوية الثابتة مع أيدى إخوانك من الرجال المخلصين بأيدينا الناعمة المرتبكة ؛ فقد كنتم معشر الرجال وما تزالون أقوى منا بأساً ، وأشد منا ساعداً ، وأثبت منا جناناً ، وأربط منا جأشاً ؛ غير أن الحياة لم تصلح فى عهد من العهود إلا على يدين اثنتين : يد الجنس الخشن ويد الجنس اللطيف .

وأما أنت ياسيدتى ذات السوار فاغتنمى هذه الفرصة التى هيأتها لك بالكتابة مرة أخرى إلى الأستاذ الطنطاوى معتذرة ، واذكرى ما غشت تلك التى استعارت اسمك المستعار .

يد ذات سوار رقم ٢